الـــراهـــن العـــــراقـــي والمـــثقف العـــــربي

رزاق عداي

المثقفون العرب يختلفون في مواقفهم فيما يخص تطورات الوضع في العراق ، فهذه المواقف تتباين ضمن العديد من التأويلات ، فمن المواقف ما يحتمه مقرر ايديولوجي مسبق قبلي لهذا المثقف او ذاك من دون الاخذ بالمجريات الواقعية ، فيما سيكون هذا الموقف بعيداً كل البعد عن الرؤية العقلانية للاحداث ، اما الاتجاه التأويلي الاخر فناجم عن جهل تام بما حصل على مدى اكثر من ثلاثة عقود وما اورث ذلك من نتائج ومصائر تلك التي بلغها العراق وشعبه جراء سياسة طائشة وعدمية افضت به نحو هذه النهايات ، ويمكن ان نستنتج من بعض مواقف المثقفين العرب ان هؤلاء تدفعهم او تقف خلف مواقفهم عوامل شتى ، منها علاقتهم مع النظام السابق ورموزه الثقافية ، أي ان هناك حوافز وعوامل عامة وذاتية ، صرفة ، وهذه المواقف لا يمكن وصفها في نهاية المطاف بسوى انها مصابة بعاهة العماء مما جرى ويجري الان.

عموم هؤلاء المثقفين يتباكون على المصير الذي آل اليه العراق،.والطعنة النجلاء، التي اصابت خاصرته، جراء الاحتلال، وبهذا فليس مهماً في منظورهم اشعال النار تحت اقدام الغزاة.. ففي كل فرصة متاحة " كتابة كانت ام لقاء في صحيفة او عبر الفضائيات" يدعو البعض منهم الى حرق بترول العراق حتى لا يكون في جيوب الاميركان وخزائنهم، ويبررون الايغال في تدمير البنية التحتية كهرباء، ماء، صناعات، انابيب، مؤسسات، ليحصل هذا فالمهم اشاعة الرعب والقتل حتى يضطر الاميركان للجلاء عن ارض الرافدين.. هكذا ينادي منظرو الامة الفكريون . دون تفحص تاريخي ولو بسيط لبلوغ جزء من الحقيقة وتتسلسل الاحداث وفقاً لتطوراتها وعبر ابعادها وخلفياتها القديمة والحديثة حتى يتحاشوا النظرة الاحادية القاصرة او ذات الطابع النفعي الانتهازي.

وعلى كل حال فلا احد يمتلك الحق في ان يصادر حق المثقف العربي في موقفه مما يجري في العراق، ولكنه وفي كل هذه الاحوال، مطالب بموقف منصف اولا وعليه ان يتجرد ثانيا من الخطابات العامة والفضفاضة التي يبدو ان هؤلاء المثقفين عبرها يظهرون اشد اخلاصا وتعلقاً بالعراق وبمستقبله يفوق العراقيين ذاتهم.

وحتى نمتلك الحيادية والتوصيف الحصيف علينا الاقرار بان هؤلاء المثقفين ما زالوا "الابرياء منهم" معلقين بوهم خطاب او مجموعة خطابات تقليدية ما نفعت الثقافة العربية في أي لحظة من لحظاتها التاريخية المعاصرة، لا بل ساهمت بتعزيز المتطورات الراكدة في الثقافة العربية، فهذه الثقافات التقليدية تكررت، او انها اهملت تماما كل المتغيرات الهائلة التي اصابت المرتكزات الفكرية والايديولوجية لهذا المنظور او ذاك، فعلى سبيل المثال، ينبغي الاشارة الى ان المشروع القومي، الذي طالما اجتروه وكرروا دعوة ثقافته ، تعرض الى كثير من النكسات، تكللت بهزيمة، الخامس من حزيران ، التي اجبرت اليقظين من مفكريهم على اعادة المراجعة والحسابات، فلاحت لهم هذه النتيجة وكأنها مؤشر على خواء الكثير من محتويات هذا الخطاب، فاصبح من الضروري والواقعي إيجاد السبل الجديدة التي تأخذ بعين الاعتبار المعطيات المستجدة على صعيد الواقع العربي، او حتى المتغيرات العالمية ومساراتها الفكرية، وهكذا انعكس على مجمل المنظومات الايديولوجية العربية، فجرى نوع من الانزياح والتحوير في صميم او محاور هذه الايديولوجيا ، وحصلت حلول لبعض هذه التيارات الاخرى، وهذا الامر انعكس على جميع منظومات الفكر التي تمثل موجهاً للحركات السياسية التي كانت محض واجهات او مفاصل او حتى التيارات التي هيمنت طويلاً وشكلت ما اطلق عليه، "الثقافة العربية او العقل العربي".

المنظومة والمكونات والموجهات الفكرية والسياسية للنظام السابق اصرت على مواصلة خطاب شبه ميت لم يلتفت الى المتغيرات الحاصلة، ولم يقف لاعتبار الافلاس الذي انتهى اليه المشروع القومي الذي انطلق مع طلائع وبدايات القرن الماضي تقريباً وانتهى بنهايات مروعة اثبتت هشاشته وخواء محتوياته.

ان تمادي النظام في اعلان استمراره في تنشيط المشروع القومي البديل لمشروع سابق . لم يكن سوى نوع من المماهاة الايديولوجية لتبرير النظام العسكرتاري . الدكتاتوري . عبر عقوده التي تجاوزت الثلاثة، فهذه التعمية اريد لها ان تكون ركيزة لنظام قمعي . مولع باشعال حرائق الحروب، كما اريد لها ان تكون ذريعة أيديولوجية لهدف ستراتيجي كاذب وموهوم يتمكن من جمع الحشود نحو اهداف ثقافية . قومية لم تكن سوى وسائل لتكريس شكل من اشكال السلطة . وهكذا مرت عبر هذا النمط والاحتيال الثقافي شتى ضروب السياسات الخاطئة، فالحروب التي مارسها النظام مررت تحت هذه اليافطات.والمشاريع والمبادرات السياسية المدمرة والمهمشة للمجمع العراقي التي اتخذت من قبل النظام السابق كانت تتعلل بهذه المراوغات الايديولوجية، واساليب القمع والتعسف والاعدامات والمقابر الجماعية لم تكن لتمر او يجري اقترافها دون ان تتغطى بهذا الغطاء الايديولوجي ، وهكذا كان النشاط الثقافي يتلبس بلبوس قوموي يمنح الشرعية لنظام دكتاتوري بغيض قاد بلاده في نهاية المطاف الى تعفن وانهيار لكل بنى ومؤسسات المجتمع الى الدرجة التي ادت الى السقوط في رقم قياسي ما شهده التاريخ من قبل.

وعلى صعيد السياسة الاعلامية والثقافية الخارجية فقد كرس النظام السابق الامكانات الاقتصادية الهائلة وعلى كل الاصعدة.. فكان النشاط الاعلامي الثقافي يجري على حساب العراق والعراقيين. وبتسخير لكل امكاناته، وخيراته، فقد سعى النظام الى مقايضة الكثير من المثقفين العرب بدعوى النضال الثقافي القومي.

ان نظاماً لا يرعى مصالح شعبه ويهدف الى تركيز سلطته. يسعى بشتى الطرق لتحقيق ذلك، منها شحذ الثروة الهائلة المتاتية من العوائد النفطية وهدرها عبر روافد عدة . ياتي في مقدمتها الانفاق غير المعهود سابقاً في مجال الاعلام والثقافة.

لقد كانت شريحة واسعة من المثقفين العرب تعتاش على هبات النظام السابق عبر اشكال عدة، فمن الدعم المادي والمبادرات السخية من قبل النظام في دعم الصحف والمجلات التي تعمل لحساب النظام . سواء في الدول العربية ام في بلدان اوربا . والادهى ان هذه الشريحة تمتلك من القدرة على اقناع الاخرين وقبل هذا اقناع ذاتها بانها تؤدي رسالة . ثقافية . قومية . وتوهم المتلقي بان هناك نظاماً يسعى نحو اشاعة ثقافة ذات مواصفات وطنية . قومية . انسانية ، وهكذا امتزجت الكذبة بالمبررات المتهافتة، فاصبح النظام وبوسائل شتى امل المثقفين الذي يحلمون بتغير الواقع الاجتماعي . السياسي العربي المتردي.. وكل هذا يجري والنظام موغل في العبث والتفريط بدم ولحم المجتمع العراقي عبر مسلسلات الحروب الفاشلة والقتل والاعدامات والمقابر الجماعية.

ومن الجانب الثاني كان شكل الثقافة الشائع في العراق مؤسساً على مرتكزات تشيع العنف وتكرس مبادئ الدمار والبطولات المزيفة.

في سنوات النظام الاخيرة حصل نوع من التفسخ الذي شمل كافة المؤسسات الثقافية وغيرها، حتى اصبحت بنية الفرد . والدولة عرضة للانهيار ، فاعقب ذلك انفصال حاد بين السلطة الحاكمة والمجتمع، تجسد في قمة تجلياته في فترة التسعينيات، وكل الاحوال تهدد بانهيار رهيب . حتى بلغ مستوى شكل الدولة الى حد متدن ، والامور لا تجري بما يماثل الدول الحديثة، فالرئيس . دكتاتور معزول في قصوره، وشعب يتضور جوعاً ويهرب الى بلاد الشتات . فكان الحكم يجري وفقا لسياقات بوليسية من جهة . ومن جهة ثانية كان حكم المافيات حتى في اطار الثقافة والاعلام - وعبر هذه المتغيرات الداخلية التي شملت الداخل . العراقي ظل الولاء لدعم الرموز الثقافية العربية التي تقوم بدعم وتزكية النظام حتى نهايته المخزية.

اما عندما تفاعلت عملية تغيير النظام، فقد اشار هذا التغيير الى جملة من المؤشرات منها تغير العديد من المفاهيم السابقة والتي كانت تشكل خطابات ثقافية . تقليدية، فاولئك المثقفون ذوو الدوافع البريئة والمفاهيم التقليدية لم يكن ما يجري قد تم وفقا لتصوراتهم، فبانت المتغيرات تتقاطع مع الثوابت الايديولوجية التي تكون محتوى معتقداتهم، فكانوا عرضة لهوة عميقة مست كياناتهم ومصالحها وهددت تصوراتهم المثالية، فما كان بالمقدور التكيف مع هذا الحدث الضخم، واولئك المنتفعين، الذين فقدوا امتيازاتهم وما آل اليه الامر من تطورات، فلم يكن هناك من يدمن السكوت ازاءها فراحت مواقفهم ازاء مجريات الامور تاخذ مسارات تحددها ما فقدوه من امتيازات وما هدد تصوراتهم من تغيرات ومن افاق ربما يحققها العراق في المستقبل القريب، وهكذا سقطت منظوراتهم في وحل من التقديرات المتهرئة، كل هذا كان يحدث مع تهميش مزمن وقديم لما يهم العراقيين ومن دون مراجعة ومعاينة لمعاناته التاريخية الطويلة، وعمق استلابه التاريخي.

لقد توضح الامر وكانه نوع من الالتباس في المواقف، فكيف جرى الاحتلال وتغير النظام وكانه يمثل نوع التغيير الذي يلقى استجابة مقبولة من قوى سياسية وطنية لها تصوراتها ومواثيقها لهذا الاحتلال ونتائجه ، فكانت الاستجابة العراقية متقاطعة مع الكثير من الشرائح الثقافية في البلدان العربية، لمؤسسات سياسية وثقافية وكيانات ثقافية منفردة، وياتي في مقدمتها ، مسالة التغيير الحاصل في العراق، ومشروع برنامج التغير الديمقراطي الذي شرع يحدد ملامحه عبر جملة من الخطوات المدروسة.

اذن هناك من القطيعة القديمة والحديثة بين الكثير من المثقفين العرب وحيثيات الواقع العراقي السابق والمتحول الراهن، ان الرهان سيتوقف على مستقبل البرنامج العراقي، ولسوف يستيقظ من نام طويلا، ولسوف يعزل من كان يفترس الجسد العراقي.

الرسام العراقي .. الموقف من التغيير وبلاغة التعبير

طلال سالم الحديثي

اذا استطعنا ان نعرف ما يريده الفنان . الرسام خاصة . من فنه، يمكننا ان نعرف من بعد "بلاغة" الوسيلة التي استخدمها ذلك الفنان ومدى ابداعه او مدى اخفاقه. وهذا رائد من الرسامين العراقيين يقول: ان الفن الذي ندعو اليه هو ذلك الذي يظهر الصراعات العنيفة الدائرة على حقيقتها، فيعكس بذلك هذا العالم في تغيره وتطوره الى الامام. انه لا ينبذ الألم، على العكس يجب ان يجسد المشاعر الانسانية الدفينة والآلام العميقة لضحايا البشر في نضالهم من اجل مستقبل افضل، كما وانه لا يستبعد البهجة والفرح والتفاؤل، بل هو يعكس على النقيض مرح البشر المتطلعين الى الامام واستبشاره بهذا التغيير المرتقب واعتقادهم بافضليته وضرورته لتحقيق سعادة الانسانية ورفاهها.

وهذا المطلب الذي عبر عنه الرسام المرحوم محمد صبري ينطلق اساساً من تعريف تولستوي الذي يعطي للفن وظيفة (عدوى بالمشاعر والاحساسات) فالفن في نظر (تولستوي) هو فعالية انسانية تتضمن ان يقوم انسان ما بصورة مدركة بايصال مشاعر حية في نفسه الى الاخرين لكي تصيبهم عدوى هذه المشاعر وتجربتها. فالتعبير هو وظيفة الفن، وهو التفاعل مع الحياة بين عالم الانسان الداخلي وعالمه الخارجي، وهو الافصاح عن الزخم النفسي كرد فعل لحادثة او مشاهدة او تجربة حسية او ذهنية حصلت للفنان ثم ترجمته لها الى شيء مرئي "صورة كان ام رسما ام بحثا" ولهذا فالرسم الذي هو من الفنون التشكيلية يعد لغة اوجدها الانسان كعلاقة تعبيرية بينه وبين بيئته، ووسيلة لعقد الصلة مع حياتنا اليومية وكغنى حضاري مؤثر ومستمر. ولكي تكون هذه اللغة اكثر تاثيرا فلا بد من ان تتمتع بعدة ميزات كبراعة التعبير وجمال الاسلوب وذكاء الطرح وهو ما يجب توفره في أي عمل فني جيد. ان العمل الفني ليس بالجهد الهين المسطح تسطيحاً ساذجاً، انما هو حصيلة تفاعل عدة عناصر وتشابك عدة ابعاد، ولعل اهم هذه المرتكزات هي: بلاغة التعبير والتقنية في استعمال الوسط والمواد المتوفرة، والابداع والخصوصية، ولذلك فان ما يعكسه الرسام العراقي في فنه يعبر بكل بساطة عن الموقف الذي يتخذه تجاه الاوضاع السائدة، بين الذهنية الاستبدادية في الحكم والذهنية الديمقراطية الحرة، فهناك مجتمع جديد على وشك الولادة، وآخر قديم على وشك الانهيار، في هذا المخاض لم يبق ثمة مجال للشك في نوعية الوليد الجديد.

وقد تجلت مقدرة الرسامين العراقيين في جعل فنهم مستقى من تربتهم التي تجمع بين تراكم الحضارات المتعاقبة وبين مجالي الحياة اليومية المعاصرة.

ان الفن المعاصر ينطوي على اتجاهات مختلفة متصادمة تجعل من العسير خضوعها للتحليل النقدي، لذا فلم يعد العمل الفني كما اراده الانطباعيون عملاً ضوئياً يطفو على سطوح المرئيات، بل اصبح عملاً فكرياً يستهدف تجارب الانسان المتنوعة التي لا تقع تحت حصر، وبات على الفنانين ان يسلكوا احد طريقين، فهم اما ان يقصروا همهم على دراسة السطوح، او ان يذهبوا الى ما تحت القشرة فينفذوا الى صميم الظاهرات الى الانسان ذاته.. تجاربه.. وافكاره وانفعالاته.

ولعل هذا هو الذي نزع بالفنان اخيرا نحو العودة الى الريف العراقي عودة لا احسب ان أي فنان آخر يستطيع ان ياتي مثلها في فترة سادت فيها اساليب تغايرها تماما، انها عودة روحية الى التربة يمجد فيها الرسام حياة العاملين في الارض، المستنبتين عطاءها في جو من فلاحين وفلاحات وخيول ودواب، توحي كلها بقسوة وصمود وتفاؤل.

كان لمحمد صبري مثلا تخطيط قوي جعله الاساس في ما رسم من مشاهد الفقر والشظف والتمرد مؤكدا على الطريقة العراقية في الحياة جاعلا منها صرخة عنيفة في وجه الظلم، اجتماعياً كان ام سياسيا، وسواء أكانت مواضيعه نساء "ينتظرن" في مبغى ام رجالا ضامرين يتزاحمون في مظاهرة أم مجاميع من اناس فقراء يجابهون رعب فيضانات ١٩٥٤ .

ويرى رسام آخر هو كاظم حيدر ان الحياة في اصطخابها وصراعها، مأساة تتجدد، واستمرار الخلق لا يستنفد تفاصيلها، ففي "ملحمة الشهيد" استلهم استشهاد الحسين بن علي "ع" في كربلاء، وشحن كل صورة منها بحس الشر والظلام، ومقارعة الانسان لكليهما، آسنة ورماح وسيوف وخوذ وخيول، فرسان مدججون، ومؤامرات ومعارك وقتل واغتصاب ، ووحشة البطل الاخيرة وسموه في مصرعه.

وفي لوحة "فيضان" نجد ان العلاقة لا تزال قائمة بينها وبين لوحة "الرحيل" ، الا ان المرء ليلمس بعنف قسوة الكارثة وفجائعها بادية على اولئك البؤساء بشكل يستثير الوجدان.

واذا تأملنا لوحات الفنان شاكر حسن لوجدنا انها تمثل روح الاقتحام التي بدأت تغذي الفن العراقي وتدفع باساليبه الى المغامرة في ميادين الفن المعاصر، فهي تراجيدية اولا، وهي تمثيل تعبيري لمأساة الارض والانسان ثانيا، وهذا ما يدعونا الى ان نقف امامها، كما لا نقف امام أي من تلك اللوحات التي تصطف على جدران المعارض. لقد عالج الفنان العراقي مشكلة الانسان الذي ما زال يستظل بالخيمة او الكوخ، واتخذ من مادة حياته الخام قوام فنه واسلوبه، كما صور بخبرة عميقة وحساسية مرهفة، ارضنا العراقية بما كانت عليه من شقاء وبؤس.

ولعل ما تقدم يلقي الضوء على حقيقة موقف الرسام العراقي ازاء ما جرى في مجتمعه من تغيير، ذلك الموقف الذي يظنه البعض سلبياً لقصور البحث عن تبنيه وابرازه، وهو اقرب ما يكون الى الايجابية والتفاعل الحي مع البيئة والحدث والتطورات السياسية والاجتماعية الحاصلة في المجتمع. وكان الفنان العراقي . الرسام خاصة . في طليعة المثقفين الواعين الذين كانوا جزءاً فاعلا في عملية التغيير الاجتماعي النامية تحت سطح الاحداث، وكانت صرخة الرسام الهادئة اقوى في نتائجها فيما بعد من هتاف الابواق، الضاجة بدداً مع الريح.

مراجع المقالة:

❖الفن المعاصر في العراق، جبرا ابراهيم جبرا، بغداد، واعيد طبعه تحت اسم، الفن العراقي المعاصر، بغداد ١٩٧٢ .
❖تاملات في الفن العراقي الحديث، نوري الراوي، بغداد ١٩٦٢ .
❖بين الرسم والتصوير، د. قتيبة الشيخ نوري، آفاق عربية بغداد ع١٠/١٩٧٨ .
❖نحو الوان فرحانة في صلب التاريخ، مدني صالح مجلة الاقلام بغداد العدد ٨/١٩٧٧ .

من المكتبة الجديدة

العلم ومستقبل الإنسان
دومينيك لوكور وآخرون
المطبوعات الجامعية الفرنسية باريس ٢٠٠٥

شارك في هذا الكتاب أكثر من عشرين باحثاً من مختلف المشارب العلمية والفكرية تحت إشراف دومينيك لوكور الذي كان قد تولى إعداد (قاموس تاريخ وفلسفة العلوم) الذي نال جائزة (معهد فرنسا) . هذا المعهد يضم خمس أكاديميات من بينها الأكاديمية الفرنسية.

و(قاموس الفكر في العصر الوسيط) (العلم ومستقبل الإنسان) هو عنوان هذا الكتاب، وهو أيضاً أحد أهم المواضيع المطروحة للنقاش على الساحة الفكرية بعد ثورة المعلوماتية والتكنولوجيات المتقدمة.. ذلك أنه عندما قامت الثورة الصناعية الكبرى كان السؤال الكبير هو كيفية السيطرة على الطبيعة بواسطة العلم؟

حرب لا نهاية لها
برينو تيرتري
الصحافة الجديدة نيويورك . لندن ٢٠٠٥

في هذا الكتاب الجديد يقدم المؤلف برينو تيرتري. وهو عضو في معهد البحوث الاستراتيجية في باريس، صورة عامة عن سياسة بوش بعد ضربة ١١ سبتمبر، ويرى الباحث أن السياسة الخارجية الأميركية شهدت ثورة أو قطيعة كاملة مع الماضي في عهد بوش الابن ولكي يوضح ذلك فإنه يعود قليلاً إلى الوراء لكي يشرح لنا كيف كانت السياسة الخارجية لبوش الأب وبيل كلينتون، وكيف أصبحت في عهد بوش الابن.

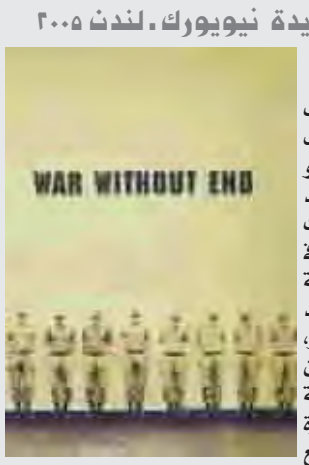

فهناك فرق كبير جداً بين السياستين. الأولى كانت سياسة واقعية تقوم على الدبلوماسية وعدم التدخل في شؤون الدول الأخرى. كما وكانت تتسم بالحذر والحيطة والهدوء.

وأما الثانية فقد أصبحت سياسة مغامرة تقوم على القوة العسكرية الضاربة وحق أميركا في التدخل في شؤون الدول الأخرى كما تشاء وتشتهي، كما أنها تقوم على الضربات الاستباقية للدول أو القوى التي تعتبر أنها تشكل خطراً على أمن الولايات المتحدة.

كتاب كامبردج عن موزارت
سيمون كيف وجوناثان كروس
الناشر: مطبوعات جامعة كامبردج
٢٠٠٥

قام بتأليف هذا الكتاب كل من الباحثين سيمون كيفي وجوناثان كروس، وفيه يستعرضان حياة أحد أكبر عباقرة الموسيقى في تاريخ البشرية. ولد وولفغانغ أمادوس موزار عام ١٧٥٦ في مدينة سالزبورغ بالنمسا، ثم استقرت عائلته في العاصمة فيينا بدءاً من عام ١٧٨١ .

الشعر الفرنسي عبر نجاحاته
تأليف: إيمانويل دو وار سكيبل وبينوا لودييه
الناشر: لاروس . باريس ٢٠٠٢

الناقدان الفرنسيان إيمانويل دو وارسكيبل وبينوا لوديبه قدما في هذا الكتاب لمحة تاريخية عامة عن الشعر الفرنسي منذ أقدم العصور وحتى اليوم. وهما يقسمان هذا الشعر من الناحية المنهجية والزمنية إلى خمس مراحل: أولاً مرحلة العصور الوسطى وعصر النهضة (١٢٦١-١٥٧٨)، وثانياً مرحلة العصر الكلاسيكي (١٦٢١-١٧٩٦)، وثالثاً مرحلة الشعراء الرومانطيقيين (١٨١٨-١٩٠٩)، ورابعاً مرحلة الحداثة الشعرية (١٩١١- ١٩٤٥)، وخامساً وأخيراً مرحلة الشعر المعاصر لنا (١٩٤٥-٢٠٠٤).

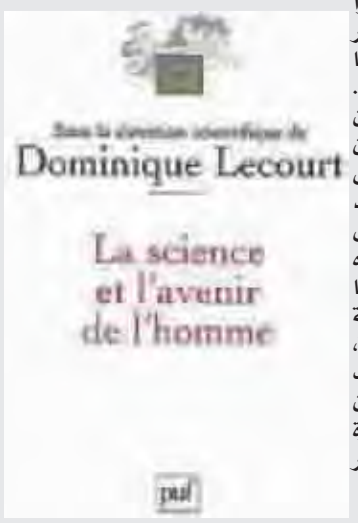

ونلاحظ أن المؤلفين يختاران أجمل القصائد الخاصة بكل مرحلة من هذه المراحل، فيما يخص المرحلة الرومانطيقية، مثلاً نلاحظ أنهما يختاران قصيدة البحيرة للشاعر لامارتين.